# جهود الشيخ سيدي المختار الكبير الكنتي في نشر الطريقة القادرية بالساحل والغرب الافريقي خلال القـرنتن 18–19م

د. صالح بوسليم

جامعة غرداية

إن المتأمل في تاريخ التصوف بالصحراء الافريقية الكبرى ، يجد أن له بالغ الأثر في نشر الإسلام بها، إذ كان لرجالاته إسهامات جليلة في استقرار تلك المناطق دينيا وسياسيا واقتصاديا، كما كان لشيوخ الطرق الصوفية اليد الطولى في ملء الفراغ الروحي الحاصل بها، حيث اضطلع أتباعها بدور هام في حضارة بلدان الساحل والغرب الافريقي ونهضتهما. وكانت الزوايا بحق الملاذ لطالبي العلم الذين شقوا في ذلك أكباد الإبل، كما كانت نزلا مريحا لعابري السبيل الذين لفحتهم الصحراء بهجيرها الحار.

وقد سجل التاريخ لبعض حواضر صحراء الجزائر إسهامها المشهود في تمكين هذا النسيج الحضاري الخصب والخلاق من الانتقال بواسطة قنوات شتى، منها طرق قوافل التجارة الصحراوية وحركة التصوف ونشاط الطرق الصوفية نحو العمق الإفريقي، حيث انتشرت في جنبات القارة السمراء، وخاصة ببلاد الساحل الافريقي وغرب افريقيا ، حيث انتشرت مظاهر حضارة المغرب العربي الإسلامي، والتي استُقبلت من طرف حضارات أخرى، فحصل تفاعل بين المحلي بالوافد، وتواصلت الدورة الحضارية جاعلة من المغرب العربي الاسلامي ملتقى للشمال بالجنوب والمشرق بالمغرب العربيين؛ فضاء متميزا لتلاقح الثقافات.

وسنحاول من خلال هذا المساهمة المتواضعة تسليط الضوء على جوانب من جهود الشيخ سيدي المختار الكبير الكنتي[1] ، وابنه الشيخ سيدي محمد بن المختار الكنتي في نشر الاسلام عن طريق تعاليم الطريقة القادرية في منطقتي الساحل والغرب الافريقي.

**أ). الطريقة القادرية وامتداداتها بين شمال الصحراء وافريقيا جنوب الصحراء:**

تُعتبر هذه الطريقة من أهم الطرق الصوفية وأوسعها انتشارا في العالم الإسلامي، وابلغها تأثيرا فكريا واجتماعيا وسياسيا في الكثير من البلدان الإسلامية. و تُنسب إلى الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني، (أو الكيلاني) دفين بغداد (ت 561هـ/1166م). هذا الأخير الذي عاش في بغداد، وتصدّى للتدريس والإفتاء على المذهب الحنفي، واشتهر بالزهد والتقوى[2].

وقد انتقلت طريقته إلى بلاد المغرب الاسلامي عن طريق الشيخ أبي مدين شعيب الأنصاري الأندلسي (ت594هـ/1198م)، وأخذها عنه الشيخ عبد السلام بن مشيش، الذي انتشرت على يده بصفة محدودة، وقد بذل الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي[3] (ت 940هـ/1533م) جهودا كبيرة في نشر القادرية في بلاد السودان، حيث زار كل من كانو وكاتسينا[4] في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، وشارك في نقل تعاليم الطريقة القادرية في مراكز الهوسية. وكان وفياً لمرجعيته

الفكرية ونشر القادرية حيثما حلّ. وعنه أخذها الشيخ سيدي أعمر بن الشيخ سيد أحمد البكاي الكنتي (ت959هـ/ 1552م)، الذي ينسب إليه تأسيسها في السودان الغربي والصحراء الكبرى.

ولعل من بين أكبر الطرق التي استظلت بها منطقة شاسعة من غرب افريقيا نجد "الطريقة البكائية الكنتية"، والتي تنتسب في سندها الصوفي إلى السيد عبد القادر الجيلاني(ت 561هـ/1166م)، وفي عرقها إلى عقبة بن نافع الفهري الفاتح الإسلامي الشهير، وكان لانتساب الكنتيين هذا أثر كبير في دعم وتزكية استمرارهم؛ لما كان قد بدأه هذا الفاتح من دعوته للإسلام، وكان بالفعل هذا هو عمل الدعاة الكنتيين الذين نشروا العلم والتصوف بين القبائل الصحراوية والزنجية على حد سواء.

وقد بلغت هذه الطريقة أوجّها على يد الشيخ المختار الكبير الكنتي[5] الذي جدّد الطريقة وجمع شتاتها، وأعاد اسم "كنته" إلى الازدهار؛ بصفته زعيما دينيا بفضل الورد القادري ونشر الدين الإسلامي في المنطقة، وزعيما سياسيا بقيادته "كنته" بأزواد(شمال مالي) وجعلها مستقرا لهم، فقد استطاع هذا الشيخ أن يسترد للزاوية مجدها التاريخي؛ بعدما أصابها الجمود والتحجر، وظلّت تعاني من العفوية والارتجال، وذلك بما حرره من كتب علمية، وصدره من تلاميذ، ورسخه من آداب وتقاليد صوفية، ثم سيأتي بعده ابنه السيد محمد بن المختار الكنتي الذي اختاره والده ليكون خليفة من بعده.

و يبدو للباحث أن الطريقة القادرية، قد عرفت المجال الأكبر لانتشارها في غرب إفريقيا بعد أن تزعم الشيخ عثمان بن فودي عملية هذا الإحياء القادري. و

يمكن تحديد انتشار الطريقة القادرية خصوصا بالجزائر في كل من منطقة التل الوهراني وجنوب الجزائر، كما انتشرت في جنوب المغرب الأقصى على يد الشيخ سيد أحمد البكاي بودمعة[6] ، الذي امتد نفوذه في اتجاه الجنوب الجزائري؛ ليشمل واحات توات، والهقار، و منه إلى أطراف السودان الغربي.

وجدير بالذكر، أن شيوخ كنته كانوا يزورون برنو ويطبقون تعاليم الطريقة القادرية[7].وقد تأثر الشيخ سيد المختار الكبير بأفكار وآراء الشيخ الزروق، وقام بالدعوة لهذه الطريقة بمنطقة الأزواد.

وربما لا نكون مغالين إذا قلنا أن الطريقة القادرية في هذه المنطقة ارتبطت ارتباطا عضويا ،ووجوديا بالكنتيين، فهم الذين حملوا العبء الأكبر في نشر تعاليمها وأورادها ومنهجها في التربية الروحية، والتعليم، حملوه في كافة أرجاء هذه الصحراء وبلاد السودان الغربي،كان ذلك بالطبع تكملة للدور العظيم الذي قام به الداعية الإسلامي الكبير الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي.

وفي أوائل القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي أسّس شيوخ كنته مدينة مبروك (Mabrouk)، التي صارت مركزاً لنشر الطريقة القادرية، وظهر بين جماعة كنته عدد كبير من الفقهاء الذين صارت لهم القيادة الدينية في القرن الثالث عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، وتوسعوا خارج الحدود القبلية، وأدخلها إلى الغرب الافريقي(السنغال) الشيخ سيد أحمد البكاي[8]، والذي يعتبر بحق علما لامعا في عطائه المعرفي، وسلوكه الإسلامي. وتفرعت الطريقة القادرية

بغرب إفريقيا إلى شعبتين كبيرتين وهما، البكائية الكنتية والفاضلية، ويعود الفضل في تأسيس الشعبة البكائية إلى الشيخ اعمر بن الشيخ أحمد البكاي في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي[9]. ومن الأعلام الكنتيين البارزين، نذكر:

- **الشيخ سيدي المختار الكنتي الكبير(ت1226هـ/1810م):**

ولد الشيخ سيد المختار بن أحمد بن أبي بن أبي بكر الكنتي الكبير سنة 1142هـ/29-1730م على أرجح الروايات التي ذكرها ابنه الشيخ سيدي محمد[10]. وقد تضاربت أراء المؤرخين حول تحديد تاريخ ميلاده بالتقويم الهجري؛ فبعضهم ذهب إلى أنه كان عام 1143هـ/1730م، إلا أن الرواية الأرجح هي ما ذكرناه آنفا.

أما عن مكان ميلاده، فقد ولد الشيخ -رحمه الله- بمنطقة تدعى بلكثيب أو غال بأزواد موطن كنته الشرقيون، وقد أورد البرتلي ترجمة عنه في كتابه (فتح الشكور)، حيث قال عنه:" ..القطب الرباني، والغوث الصمداني، الولي الصالح ذو البركات الشهيرة، وشيخ الأشياخ السادات، من ظهرت بركاته شرقا وغربا، ومناقبه في الناس عجما وعربا.."[11]. وللإشارة فإن قبيلة كنته التي ينتسب إليها الشيخ المختار الكنتي هي من إحدى القبائل العربية، وهي منتشرة الآن في موريتانيا ومالي وجنوب الجزائر، ويرجع نسبها إلى عقبة بن نافع فاتح إفريقيا[12].

وفي ذلك قال صاحب كتاب (الوسيط) متحدثا عن الشيخ المختار بن أبي بكر الكنتي: "وقفت على سلسلة نسبه متصلة بعقبة بن نافع الفهري الصحابي الذي فتح بلاد المغرب، وهذا يعارضه ما ثبت عند النسابين في أرض الصحراء، من أن كنته من بني أمية، لكن يمكن الجمع بينهما بأن الشيخ من كنته، بطريق الموالاة لا من طريق النسب، كما يوجد في كثير من الناس"[13].

ولعل من الأمور التي ساهمت في نبوغه، أنه نشأ في بيئة صوفية وعلمية، وفي أسرة اكتسبت أهميتها ومكانتها الدينية والاجتماعية داخل قبائل كنته وخارجها، بفضل ما قام به أفراد العائلة من إسهامات فكرية وروحية، وما اضطلعوا به من مسؤوليات لنشر العلم وإشاعة التعاليم الإسلامية.

و يذكر عنه أنه كان من أكثر أفراد عصره علما وصلاحا، ولم نرى أحدا يطعن في ولايته، ومن نظر في كتبه تبيّن له فضله، سواء كانت في الحقائق أو غيرها...". فالشيخ المختار الكبير ينحدر من سلالة وأصل طيب، فهو يصل إلى عقبة بن نافع الفاتح، وقد امتاز بقوة الذاكرة والذكاء الحاد وسرعة الفهم، ممّا ساعده على استيعاب المعلومات؛ فاشتهر أمره وخُصَّ بالاحترام[14].

ولم يقتصر نشاط الشيخ المختار الكنتي على الدعوة والإرشاد وتربية المريدين، بل ساهم بقلمه ومؤلفاته في تدعيم اختياراته ونشرها على أوسع نطاق، فكتب الرسائل والأجوبة والمؤلفات التي اهتمت بشرح آرائه وأفكاره، كما دافع من خلالها على الطريقة الصوفية السنية عامة، وعن القادرية بصفة خاصة. وله تآليف كثيرة، نذكر منها[15]:

- تفسير البسملة في نحو كراسة،
- وتفسير الفاتحة في جزأين أتى فيه بالعجب العجاب، بحيث يمكث نحو السبعة أيام أو أكثر يكتب على آية واحدة، وبلوغ الوضع على الآيات التسع في جزء، وهي تسع آيات سأله عنها بعض علماء السودان كالممتحن له، فأجابه عنها بأحسن ما ينبغي، ونضار الذهب في كل فن منتخب في ثلاثة أجزاء، وسمّاها ( كشف النقاب عن فاتحة الكتاب)،
- نزهة الراوي وبغية الحاوي، في جزأين على القالب الكبير، وهو في غاية النبل،

- هداية الطلاب وهو مختصر في الفقه، وشرحه شرحا سماه فتح الوهاب على شرح هداية الطلاب في أربعة أجزاء ضخام جدا، بحيث لو وسط لأتى في سبعة ونحوها.
- الشموس المحمدية في التوحيد،
- الكوكب الوقاد في ذكر فضل المشايخ وحقائق الأوراد،
- نفح الطيب في الصلاة عن النبي الحبيب،
- والجرعة الصافية والنفخة الكافية[16]، بديعة المنوال في جزء، والرسالة في علم التصوف، وشرح المقصور والممدود لابن مالك في جزء، وكشف اللبس فيما بين الروح والنفس؛ ونصيحة المنصف المبصر المتعطف في خمسة كراريس، والأجور المهمة لمن له بأمور الدين همة؛ وزوال الإلباس في طرد الشيطان الخناس، والبرد الموشى في قطع المطامع والرشى في جزأين، وألفية في العربية، وجذوة الأنوار في الذب على أولياء الله الأخيار، ونفح الطيب، في الصلاة على النبي الحبيب، ويتيمة الآلئ في الرد على علماء تنيالي.

وكان رحمه الله شاعرا مغلقا، و له أشعار كثيرة جدا في سائر ضروب الشعر. وقد ذاع صيته إل أن بلغ مصر وراسله الشيخ مرتضى الزبيدي[17] من مصر ومنحه.

- **شيوخه:** أخذ العلم عن مشايخ عدة، نذكر من بينهم:

- الشيخ أحمد بن عبد الله بن المختار: صاحب زاوية بقرية المأمون فكان أول رجل انتفع به،
- الشيخ علي بن النجيب الذي كان شيخه في العلوم الشرعية وفي الطريقة.

ومن شيوخه أيضا: أبو عبد الله الولاتي الذي أخذ عنه الأصول (جمع الجوامع للسبكي وكافية ابن الحاجب).

أما علم الحقائق والأذكار والأوراد، فأخذه عن شيخه علي ابن النجيب الذي لقّنه أوراد الطريقة القادرية ورسم له معالم التصوف والرياضة.

وقد عُرف الشيخ بكرامات كثيرة، منها: أن خليفته الشيخ أحمد سيري قال: كنت مرة في زاوية الشيخ أتأمل في بعض من تركته في بلادي من أقاربي وأحبابي، فإذا بالشيخ أمسكني من رأسي فوجدت نفسي في بلادي، وكان بيني وبينها نحو أربعين مرحلة، ثم بعد استيفاء غرضي وجدت نفسي في الزاوية[18].

ولم يقتصر نشاط الشيخ المختار الكنتي على الدعوة والإرشاد وتربية المريدين، بل ساهم بقلمه ومؤلفاته في تدعيم اختياراته ونشرها على أوسع نطاق، فكتب الرسائل والأجوبة والمؤلفات التي اهتمت بشرح آرائه وأفكاره، كما دافع من خلالها على الطريقة الصوفية السنية عامة، وعن القادرية بصفة خاصة.

- **وفاته:**

توفي رحمه الله تعالى يوم الأربعاء في الخامس من شهر جمادى الأولى عام 1226هـ/1810م، عن عمر يناهز 84سنة تغمده الله برحمته الواسعة، ثم آلت الدعوة والإرشاد وتربية المريدين بعده إلى ابنه وخليفته السيد محمد بن المختار الكنتي.

**2- الشيخ محمد بن المختار الكنتي (1242هـ/1826م):**

هو أحد أئمة الصوفية البارزين بإفريقيا الغربية، خلال منتصف القرن الثالث عشر الهجري، تزعم مشيخة الطريقة القادرية الكنتية ما بين سنتي1811و1826م، وخلّف تراثا علميا وصوفيا غنيا[19].

ولد محمد بن المختار الكنتي عام 1175هـ/1765م، بمنطقة أزواد شمال تمبكتو، التي قضى فيها معظم طفولته إلى جوار والدته، وقد كانت هذه المنطقة القاعدة المركزية لقبيلة كنته منذ أوائل القرن الثامن عشر[20].

وكان يُلقب بـ (الشيخ سيدي محمد الخليفة) بن المختار الكنتي بن أحمد بن أبي بكر بن محمد بن حبيب الله بن الوافي بن عمر الشيخ بن أحمد البكاي بن محمد الكنتي بن علي بن يحيى بن عثمان بن يَهُسْ بن ورْد بن يعقوب بن العاقب بن عقبة بن نافع[21].

وقد نشأ في وسط زاويتهم العلمية، وتربى في كنف والديه في بيت من أكبر بيوتات العلم والسيادة في غرب الصحراء، ولا يُعرف عنه الشيء الكثير، غير أن ورعه ونبوغه قد جذبا إليه انتباه والده، ولهذا اصطفاه ليخلفه بعد وفاته سنة (1226هـ-1811م)[22].

ولم تكن هذه الخلافة تقتصر على مسؤولية زعامة الطريقة القادرية بالصحراء والسودانين الغربي والأوسط فقط، بل تتعداه لتشمل مسؤولية قبائل كنت، وكانت من الأسباب التي جعلت والده وشيخه المختار الكنتي يختاره ليكون خليفته ما يلي:

- أولا: الورع والتقوى الذي كان يتميز به دون باقي إخوته، فقد ذكر بول مارتي أن ورعه وعلمه اجتذبا انتباه والده، ولهذا اصطفاه ليخلفه بعد وفاته.

- ثانيا: تضلعه في العلم، خاصة التصوف الذي ألّف فيه أغلب كتبه.

- ثالثا: مكانته المتميزة لدى قبائل كنته، حيث كان يتدخل لإصلاح ذات البين بين مجموعة من القبائل، كما فعل حين أصلح بين رئيس البرابيش علي بن محمد بن رحال وأبي بكر بن الشين الترمذي سنة 1205هـ/1790م.
- رابعا: اتّباعه سمت شيخه الوالد، وتتبعه لجميع خطواته، ويظهر هذا الأمر جليا من خلال الرسائل التي تبادلوها فيما بينهم خاصة أثناء دخول المؤلف سلك الرياضة الروحية والتكوين العلمي [23].

وقد بلغت الزاوية المختارية الكنتية أوج عطائها المعرفي في هذه المرحلة على يد والده الشيخ المختار الكنتي، فأفاد منه كثيرا وتخرج به في سائر الفنون والعلوم، وكان من مظاهر هذه المرحلة الزاهية من حياة الزاوية القادرية المختارية الكنتية، ذلك الإقبال الذي عرفته من لدن الطلاب النابهين، والعلماء العاملين للقاء أستاذهم وشيخهم المختار الكنتي، ولم يكن الشيخ سيدي محمد الخليفة ليفوت هذه الفرصة الثمينة للاستفادة من هؤلاء المشايخ الوافدين من شتى البلدان والأصقاع.

ولا تذكر المصادر شيئا عن حياته الأولى وطلبه للعلم، وربما كان ذلك راجعا إلى أن المترجم له لم يصنف أي شيء حول سيرته الذاتية، ويتّضح ذلك من خلال ترجمة العالم الولاتي المحجوبي في مصنّفه المشهور: "منح الرب الغفور في ذكر ما أهمل صاحب فتح الشكور"، الذي قال عنه: "... كان رحمه الله تعالى من أولياء الله العارفين، كاملا، تقيا، عابدا، ورعا، زاهدا، عالما، فقيها، جمع بين الشريعة والحقيقة، له كرامات كثيرة وخوارق عادات، وكان صوفيا أديبا، لبيبا، عاقلا، فطنا، وكان يقوم الليل كله، ذا جد واجتهاد ولزوم وأذكار، أخذ العلم والأدب عن أبيه وشيخه سيدي المختار، جمع العلوم كلها: فقها وحديثا وتفسيرا...، قام بعد

أبيه بتربية المريدين وجلب المنافع للخلق، وكان كريما سخيا عفيفا [24]. وله عدة مصنّفات نذكر منها:

- "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة": موجود في خزانة شيخ الركب النبوي بأقبلي، ترجم فيه لأبيه أبي الفضل المختار بن أحمد ووالدته، وفي خزانة الشيخ محمد باي بلعالم نسخة منه في مجلدين، واسمه عليها: "محمد بن المختار ابن أحمد بن أبي بكر الكنتي"، وله كتب قد يكون بعضها لأبيه، كلها في خزائن توات(ولاية أدرار جنوب غرب الجزائر) ،منها: "الكوكب الوقاد في فضل ذكر المشايخ وحقائق الأوراد"، و"هداية الطلاب"، و"جنة المريد دون المريد"، و"تفسير الفاتحة"، و"الأجوبة الفقهية المهمة لمن له في أمر دينه همة"، الروض الخصيب بشرح نفح الطيب، إلى غير ذلك[25].

توفي رحمه الله على إثر مرض ألمّ به، بسبب انتشار جائحة من الحمى يوم العاشر من ماي سنة 1242هـ-1826م، ودفن إلى جانب والده في بولنوار التي تقع جنوب المبروك[26].

**وفي ختام هذه المحاولة المتواضعة**، يمكن القول بأن جهود المدرسة القادرية المختارية الكنتية لم يتوقف بوفاة الشيخ سيدي المختار الكنتي أو خليفته سيدي محمد بن المختار الكنتي، فقد استمرت في نشر الاسلام إلى حدود ما وراء حوض نهر النيجر. وامتد نشاطها الديني إلى غرب افريقيا. وقد ساعدت مؤلفات الشيخ المختار الكنتي وخليفته على جعل الطريقة أكثر انتشارا في غرب افريقيا، وسيطرت على مجتمع شمال نيجيريا، وامتدت إلى أجزاء القارة الافريقية ، وأدّت في الأخير إلى التصدي لكثير من البدع والخرافات التي سادت حوض نهر النيجر.

وهكذا فقد عرفت الزاوية القادرية البكائية بأزواد في عهد الشيخ سيدي المختار الكنتي وابنه محمد الخليفة ازدهارا ،بل إنها القاعدة المركزية التي ينطلق منها الدعاة إلى ما رواء حوض النيجر، وتوسعت دائرة انتشارها فشملت مناطق عديدة وتعمقت بشكل كبير، وذاع صيتها بين شعوب الصحراء الكبرى، وكان لها الأثر البالغ في نشر الإسلام بين هذه الشعوب.

كما كان المجال الصحراوي قِبلة أمام المتصوفة من مشايخ قبيلة كنته، من الذين وفدوا على بلدان الساحل والغرب الافريقي من كل حدب وصوب، واستقبلهم الأهالي بحفاوة وإقبال منقطع النظير. وقد استمر المتصوفة الكنتيين في أداء أدوارهم الدينية والثقافية، بل يمكن القول إن هذا الدور قد بلغ أقصاه في القرنين الثامن و التاسع عشر الميلادي، وانتشرت معالم التصوف في جميع أرجاء المجال افريقيا جنوب الصحراء. كما أبلى المتصوفة الكنتيين بلاءً حسنا في التصدي للمستعمر الفرنسي، الذي حاول تأسيس مدارس فرنسية محل المحضرة الجامعة الأهلية العتيقة.

## الهوامش:

[1] ولَقَبُ الكنتي هو نسبة إلى قبيلة كنته، وكان أول من حمل هذا اللقب من أجداده محمد الكنتي بن علي، اكتسبه من اسم جد أمه أهْوَا بنت محمد العالم بن كنته بن زم، زعيم قبيلة إبدوكال الصنهاجية. ينظر: جُنة المريد دون المَريد، محمد بن المختار الكنتي (ت1242هـ/1826م)، تحقيق: محمد المهداوي، منشورات الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب ط: 1433هـ/2012م، ج1،ص21.

[2] أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ط4، ج6، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1983م، ص.211

[3] هو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني، ولد بالقرب من تلمسان وعلى الأرجح بمواطن قبيلة مغيلة البربرية بالغرب الجزائري، نشأ بتلمسان، حيث تلقى تعليمة على يد شيوخها، ثم تحوّل إلى مدن أخرى بالمغرب الأوسط والأقصى لمتابعة دراسته، فأخذ عن الشيخ يحي بن يدير وعن الشيخ عبد

الرحمان الثعالبي عالم الجزائر ووليها ( ت 875هـ/1470م) كما درس على الشيخ أبي العباس الوغليسي ببجاية، فاكتسب ثقافة دينية وأدبية أهلته لأن يعد من علماء عصره، فنال التقدير وحظي بالاحترام من طرف العديد من العلماء. وكان الشيخ المغيلي من أكابر علماء القرن التاسع الهجري/15م، لما اشتهر به من ثورة على تخلف وانحراف المنطقة التي هاجر إليها عقب ظروف خاصة بالمغرب الأوسط (الجزائر)، وقد اتخذ المغيلي منطقة توات وتمنطيط مستقراً ومجالاً للدعوة وتجديد روح الإسلام ثم اتصل بحكام الهوسة الوثنيين بالسودان الغربي، وكانت له محاورات مع الحاج محمد الأسقيا حاكم سنغاي، كما كان للمغيلي مواقفه الحادة من سيطرة اليهود على تجارة السودان الغربي، فحارب نفوذهم ودعاهم إلى الالتزام بالعهود والنصوص الإسلامية والقوانين الضابطة لعلاقات المسلمين بأهل الذمة في الدولة الإسلامية. ينظر: ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي والجغرافي للمغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1999م، ص266 .ينظر: أحمد بن يحي الونشريسي: كتاب الولايات ومناصب الحكومة الإسلامية والخطط الشرعية، نشر وتعليق الأستاذ: محمد الأمين بلغيث، مؤسسة لافوميك للنشر والتوزيع، الجزائر 1985م، (مقدمة المحقق) صفحات 05-13

[4] **كاشنه**، أوكاتسينا من إمارات الهوسا في شمال نيجيريا، وقد بدأ دخول الإسلام إلى أرض الهوسا قبل القرن الخامس عشر ، وابتداء من هذا القرن حظيت باهتمام عدد من العلماء المسلمين من شمال إفريقيا كمحمد بن عبد الكريم المغيلي الجزائري الذي زارها و عمل على نشر أفكاره الإصلاحية بينها ، وعبد الرحمان السيوطي (ت911هـ/1505) ومن كبار علمائها الشيخ محمد بن محمد الفلاني الكشناوي-من رجال القرن الثاني عشر- الذي أخذ عن علماء بلده ،ثم رحل لطلب المزيد ، فحجّ وجاور وعاد إلى مصر ومات بها سنة 1154هـ/1741م، وقد ألّف رحلة وعددا من الكتب، وترجم له الجبرتي في عجائب الآثار.ينظر: الحسن بن محمد الوزان الفاسي : وصف إفريقيا ،ترجمه عن الفرنسية : محمد حجي ومحمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي ،بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ،1983 ،ص 550.

**ينظر أيضا:** د.أ.م كاني:" مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقيا ووسط السودان بين سنة 700و1700م مع إشارة خاصة إلى كانم-بورنو وأرض الهوسا "، في مجلة البحوث التاريخية، طرابلس، السنة الثالثة، العدد الأول (يناير 1981م)، ص ص 9-26.

[5] ذكر عنه البرتلي، أنه: "كان من عباد الله الصالحين والأولياء المعروفين المشهورين، يزوره الناس من كل فج في كل ساعة، يزوره الشرفاء والأولياء والصالحون وغيرهم، وأكثر الناس زيارة له الغرباء وأهل التل والمسافرون الذين يأتون بالتجارة من جهة الشمال"، ينظر: البرتلي: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني و محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م ، ص ص30-31.

[6] ينظر: عبد الله عبد الرزاق إبراهيم: أضواء على الطرق الصوفية في القارة الإفريقية، مكتبة مدبولي، القاهرة (د.ت)، ص37.

[7] صمبا عامر: الأدب السنغالي العربي، (ش.و.ن.ت)، الجزائر 1978م، ج1، ص33.

[8] الشيخ سيدي محمد الكنتي فقيه مالكي ومؤرخ له عدة مؤلفات من بينها الطرائف والتلائد.

[9] محمد حوتية: توات والأزواد، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر،الجزائر2007م،ج1،ص186.

[10] وهذا ما ذكره الأستاذ محمد حوتية في بحثه. ينظر: قبيلة كنتة بين إقليمي توات والأزواد أثناء القرنين18-19م،رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ ،جامعة الجزائر1994/1993م، ص150.والشيخ سيد المختار الكبير هو من فرع أولاد الوافي الذين كانوا يقيمون بالأزواد، ومن المحتمل أن تكون علاقات روحية وتجارية بين زاوية كنتة و كنتة الشرقيون بالأزواد (شمال مالي) وثيقة نوعا ما، بفضل المبادلات التجارية بين توات والسودان الغربي على حد ما ذكره (بول مارتي). ينظر: بول مارتي، كنتة الشرقيون، ترجمة وتعليق: محمد محمود ولد ودادي، مطبعة زيد بن ثابت دمشق ( د.ت)، ص ص 145-148.

[11] البرتلي، الطالب محمد بن أبي بكر الصديق الولاتي : فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولى - تحقيق : إبراهيم الكتاني ومحمد حجي 1981 ، ص152.

[12] الشيخ سيدي المختار الكبير، فتح الودود في شرح المقصور والممدود، تحقيقي مأمون محمود احمد، مطبعة الكتاب العربي، ط2، دمشق، 1991م، ص13.

[13] الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، أحمد بن الأمين الشنقيطي، مطبعة المدني، القاهرة، ط4، 1409هـ-1989م، ص 361. ويقول عنه ابن مخلوف:" كان من أعلام العلماء والأئمة الفضلاء، وأحد الأساتذة المشهورين، والجهابذة المعروفين". ينظر: شجرة النور الزكية، المطبعة السلفية بمصر1349هـ،ص377 .

[14] محمد حوتية، المرجع السابق، ص151.

[15] البرتلي، المصدر السابق، ص ص 152-153

[16] تاريخ تأليف هذا الكتاب كان سنة 1207هـ/1792م، وهو من الكتب التي كانت متداولة في طرابلس الغرب(ليبيا) مع كتاب المنة في اعتقاد اهل السنة، وممّا يؤكد ما ذهبنا إليه المقال الذي كتبه الأستاذ عزيز بطران عن المختار الكنتي ونشر بمجلة البحوث التاريخية التي تصدر عن مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، العدد الثاني، طرابلس 1981م. ونشير إلى أن بعض آثاره العلمية توجد بمركز أحمد بابا بتمبكتو.

[17] ولد الشيخ " محمد مرتضى بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني العلوي الزبيدي " العراقي الأصل بالهندسة 1145هـ/1732م، فأخذ بها مبادئ العلوم، ثم ارتحل لطلب المزيد، فدخل زبيد وأقام بها مدة طويلة حتى نسب إليها، ثم استوطن مصر منذ سنة 1167هـ حتى توفي بها سنة 1205هـ/1790م، وقد اتسعت شهرته بها وطار صيته، وكثر مشايخه وتلاميذه وعارفو فضله كثرة ظاهرة، وأحيا ما درس من فنون العلم، وتنوعت تآليفه ورسائله واتصالاته، وقد تم تلميذه المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي ( ت 1237هـ/1822م) ترجمة واسعة له

في ( عجائب الآثار)، وأشهر مؤلفات الزبيدي كتابه ( تاج العروس) الذي استوعبت فيه مواد العربية من مصادر كثيرة مع مستدركاته عليها، وقد وصف كتاب التاج بأنه ( موسوعة فكرية أكثر من كونه معجما متخصصا) وكان الكتاب ومؤلفه موضوعا لأطروحة دكتوراه قدمها الدكتور هاشم طه شلاش بجامعة بغداد سنة 1978م، وقد صدرت في كتاب بعنوان ( الزبيدي في كتابه تاج العروس ) سنة 1981م ينظر: عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق وشرح حسن محمد جوهر وعمر الدسوقي والسيد إبراهيم سالم، لجنة البيان العربي، القاهرة 1965م، ج4، ص ص 142-167.

[18] ينظر: جامع كرامات الأولياء، يوسف بن إسماعيل النبهاني (ت1350هـ)، ضبطه وصححه: عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط4، 2009م، ج2،ص.378

[19] ينظر: جنة المريد دون المريد، محمد بن المختار الكنتي (ت1242هـ-1826م)، تحقيق: محمد المهداوي، منشورات الرابطة المحمدية للعلماء، ط: 1433هـ-2012م، ج 1،ص21.

[20] ينظر: الطرائف والتلائد، مخطوط بخزانة شيخ الركب النبوي أقبلي، أولف ،ولاية أدرار الجزائر، ص

[21] ينظر: كتاب "الإرشاد في الهداية إلى السداد وحسن الاعتقاد"، للشيخ المختار الكنتي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم: 935ك، ورقة: 455؛ و "الطرائف والتلائد"، لمحمد بن المختار الكنتي، تحقيق: شفيق أرفاك، ص .12

[22] جنة المريد، محمد بن المختار الكنتي، المصدر السابق، ج 1،ج22.

[23] ينظر: المصدر نفسه، ج 1، ص141.

[24] منح الرب الغفور في ذكر ما أهمله صاحب فتح الشكور، أبو بكر بن أحمد المصطفى المحجوبي الولاتي، دراسة وتحقيق: الهادي المبروك الدالي، د.ط، ص: .69

[25] الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط17، 2007م، مج 7،ص.92

[26] ينظر: بول مارتي: المرجع السابق،ص 79.

# عبد المجيد مزيان وتجديد النص الخلدوني
# دراسة في المنهج

**إسماعيل نقاز**
**جامعة سيدي بلعباس**

إن الحديث عن عبد المجيد مزيان والنص الخلدوني هو قراءة للرؤية التجديدية في الخطاب الخلدوني، والإضافة المقاربية في العلوم الإنسانية، خاصة علم العمران وفلسفة التاريخ ونظريات الاقتصاد، حيث إن مزيان وضع بصماته في تقريب النص الخلدوني مع ما جادت به آخر النظريات الغربية المعاصرة في نظرية المعرفة وابستمولوجية النظر الاجتماعي والفلسفي للتاريخ والعمران. كل ذلك مع استجلاء الصيغة المقاربية المنتخبة لدى مزيان.

إن منهاجية النظر التي اتخذها مزيان سبيلا في فك شفرة النص الخلدوني، تتمثل في الرؤية الواقعية التي لا تبتعد عن المحيط الثقافي والسوسيولوجي الذي عاشه ابن خلدون، فمراعاة الزمان والمكان والبيئة التي نبتت فيها أفكاره، تعتبر منهاجية عميقة تستطيع الولوج إلى معرفة الحقائق التي بنى عليها ابن خلدون نظرياته.

وعلى هذا الأساس ينقم عبد المجيد مزيان على كثير من الباحثين الذين تناولوا النص الخلدوني، فألبسوه لبوس النظريات النقدية المعاصرة مثل الوضعية المادية، الجدلية الهيجلية، والظاهراتية الهوسرلية، وهذا في اعتقاد مزيان خروج عن المنهج الواقعي الحقيقي، واعتناق لمختلف التأويلات المبتسرة المشوهة للنص الخلدوني، فقد جنت هذه الدراسات على النص الخلدوني فأخرجت نظرياته عن كل دوائر المعقولية، مع أن البيئة العلمية والفكرية، والحياة الثقافية والاجتماعية لا تحتمل مثل هذه

قد يقول قائل أن معاني المعقولية استمدها ابن خلدون من الحركة الثقافية العقلانية التي قادتها المعتزلة، المستمدة من الفكر اليوناني، نجيب على ذلك بأن ابن خلدون لم يزغ طرفة عين عن أشعريته، بل إنه نافح عنها، ولم تخرج نظرياته عن العقد الأشعري في أي مناسبة من فكره، إضافة إلى نقمه الكثير عن جمود المنطق الأرسطي وعلى الفلسفة اليونانية في كثير من المواضع.

يأتي البحث في مفردات أربع:

أولا: عبد المجيد مزيان حديث النشأة والنبوغ

ثانيا: إشكالية المنهج في قراءة النص الخلدوني

ثالثا: النظرية الاقتصادية ومحوريتها في المقدمة

رابعا: استشراف البحث الخلدوني والمقاربة الفكرية المعاصرة

**أولا: عبد المجيد مزيان حديث النشأة والنبوغ**

نقدم سيرة موجزة عن الفقيد الدكتور عبد المجيد مزيان، فهو من مواليد مارس 1926 من عائلة عريقة بتلمسان حيث ترعرع وحفظ القرآن الكريم في التاسعة من عمره، وتعلم مبادئ اللغة العربية بدار الحديث ودروس اللغة الفرنسية بالمدارس العمومية.

وبعد سنة 1946 انتقل إلى مدينة الرباط بالمغرب الشقيق ليواصل دراسته في جامعتها ويتخصص في الفلسفة.

ومع اندلاع الثورة التحريرية المجيدة إلتحق بصفوف النضال والكفاح حيث كان يعرف باسمه الثوري صالح الدين، وعينته قيادة الاتصالات العامة آنذاك (النواة الأولى للمخابرات الجزائرية) للعمل في إذاعة الجزائر التي كانت تبث من تونس.

و بعد الاستقلال تقلد عبد المجيد مزيان عدة مناصب في الدولة، حيث عمل مدير ديوان الرئيس الأسبق أحمد بن بله بالتوازي مع شغله منصب الأمين العام لوزارة الداخلية، قبل أن يتحول إلى جامعة وهران للتدريس في عهد الرئيس الراحل هواري بومدين.

ونصب عام 1981 عميدا لجامعة الجزائر قبل أن يعينه الرئيس الشاذلي بن جديد وزيرا للثقافة ثم وزيرا للثقافة والسياحة. واختاره بعدها الرئيس اليمين زروال لرئاسة المجلس الإسلامي الأعلى الذي بقي فيه إلى أن وافته المنية رحمه الله يوم 15 جانفي 2001 وقد لقبه رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة في برقية التعزية بأنه عمدة علمائنا الأعلام وزينة مثقفينا الأفذاذ ..

ويعتبر الدكتور مزيان من بين أبرز علماء العالم العربي الذين عملوا من أجل ترقية حوار الحضارات، وكان يدير ندوات للتعريف بالإسلام بمعهد الدراسات العربية العليا التابع للفاتيكان ، إضافة إلى تقديمه حصصا عن الإسلام على القناة الفرنسية الثانية .

وعرف باهتمامه الكبير بالعلوم الإسلامية وتجديد الفكر الخلدوني، وله أطروحة ضخمة حول الفكر الإقتصادي عند ابن خلدون. مما أهله عن جدارة لأن يصبح عضوا في بيت الحكمة بتونس وبالأكاديمية العربية بالقاهرة ، والأكاديمية الملكية المغربية وأكاديمية اللغة العربية بالجزائر[1].

**ثانيا: إشكالية المنهج في قراءة النص الخلدوني**

لا بد من القول أن أهم إشكالية يقع فيها بعض الباحثين المعاصرين، خاصة إذا كان الحديث يتعلق بمسألة أو قضية تراثية؛ أي وليدة الأمس، هو إشكالية التبيئة، أو تقريب النص التراثي من أجل أن يكون لديه صدى واقعي ومعاصر، وهنا تأتي مشكلة الإسقاط والنقل المبتسر عن النص الأصلي، عن طريق التأويل

الخافت الذي يتجه نحو الولادة القيسرية، وقول ما ليس موجودا، أو ما هو غير محتوى.

أعتقد أن هذه المشكلة أصبحت تؤرق كثيرا من الباحثين، لا سيما الذين ولعوا بالفكر الغربي عن طريق المقاربات المختلفة، وبناء على ادعاء آخر يقتضي أن وصف العلمية لا يكون أبدا بمعزل عن المكون الغربي المعاصر، في آلياته المنهجية ومقارباته الفكرية.

يقفنا عبد المجيد مزيان وهو يقترب من تذليل صعاب النظرية الاقتصادية عند ابن خلدون، على هذه الإشكالية التي جعلها محور الإشكال الذي يطرحه في صدد بيان المنهج، يشير مزيان إلى هذه المناحي المعاصرة بقوله:« تكاد تصبح الدراسات الخلدونية التي بدأت تظهر في السنوات الأخيرة كلها موجهة نحو إدماج التفكير الخلدوني في البيئة الفكرية المعاصرة، مع نوع من عدم التحفظ في المقارنات، ومع إلحاح شديد في إظهار جدة هذا التفكير وإبرازه في مظاهره الثقافية المنسجمة مع تفكيرنا في القرن العشرين» [(2)].

مع اليقين أن كثيرا مما جادت به العقلية الخلدونية يصبو إلى بيان علم العمران وكونه مستقلا، إضافة إلى المنهج الواقعي الذي لازمه في تحاليله، كذلك توظيفه قواعد المنهج التجريبي عن طريق التجربة والملاحظة وبعض الاستقراءات، ومنهاالنظرة المادية الظاهرة التي جعلت نتائجه واقعية بعيدة عن كوامن العقل ومثاليته...الخ.

هذه وغيرها تقدم لنا وجه الإبداع المشرق لدى ابن خلدون، وعن طريق هذه الدعائم العميقة تتجلى عبقرية ابن خلدون، وكونه طفرة حضارية. لا ينكر عبد المجيد مزيان وهو يساير نخبة المثقفين في هذه الإشادات الموضوعية، والمواضع الإبداعية لابن خلدون.

لكن منهجية النظر في اعتقاد عبد المجيد مزيان تتمثل رد العقلية الخلدونية في بيئتها، حتى لا يرتمي الباحث في أوكار الذاتية، فتنسيه نشوة المقاربة الواقعية عن بيان الحقيقة العلمية التي تحملها الظاهرة الخلدونية في عمقها، حيث «كثيرا ما تؤدي بنا هذه المقارنات إلى مواقف اصطناعية حينا، أو ذاتية في بعض الأحيان» [3]. لأن مهمة البحث العلمي في تقريب النص الخلدوني لا تعطي مقومات قوية فاعلة، ومعرفة حقيقية إلا إذا اقتربت من التفكير العقلي والواقع المعيش الذي عاشه ابن خلدون، بين هذه الثنائية يمكن أن نصل إلى معطيات نستطيع من
خلالها أن نوافق ابن خلدون أو أن نخالفه، وحتى إذا أردنا أن نحاكمه إلى نتائجه النظرية، فمنهاجية النظر لا يمكن أن تخرج عن نطاق هذه الثنائية.

وهنا يناقش مزيان مع هؤلاء المعاصرين الذين تناولوا نص ابن خلدون، لكن طالهم بعض التشويه، فيقدم معطى منهجي ومعرفي في التعامل مع النتائج الخلدونية في علم العمران ومختلف التحليلات الاقتصادية، يقوم على« إدماجه في بيئته الثقافية الحقة، وهي البيئة الفكرية الإسلامية. قد تبدو هذه الحقيقة ذات بداهة صبيانية لأول وهلة، ولكن الدعوة إلى تأكيدها ليست عديمة الفائدة» [4].

ويقف عابد الجابري الموقف نفسه، عندما ينقم على كثير من الدراسات التي انحرفت في تناول الدرس الخلدوني بعيدا عن المنهاجية الخلدونية نفسها، حيث« أن الفكر الاجتماعي مرتبط دوما بالعصر الذي ظهر فيه، وبمشاغل أهله، وإنه بالتالي يفقد هويته الحقيقية، ودلالته الصحيحة، إذا ما حولنا فهمه على ضوء معطيات عصر آخر» [5].

بل إن هذا الاتجاه يؤكد عليه ابن خلدون نفسه عندما يحذر من مطبة عدم معرفة التباين الحاصل بين الأزمان والعصور، وان مراعاة ذلك مهمة في الفكر

الاجتماعي، فيقول:« من الغلط الخفي في التاريخ، الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام... » [6].

ولعل أهم الأفكار الفلسفية والاجتماعية المعاصرة التي عملت على إثبات ذاتيتها من استوحاء النص الخلدوني، وجر الموروث الخلدوني وفق تفكيرها، النظرية الوضعية التي لم تر في ابن خلدون سوى أنه الأب الملهم الذي شيد عرى الوضعية الواقعية، فكان تفكيره الاجتماعي في علم العمران لصيقا بهذه المادية الواقعية بعيدا عن كل ما له علاقة بالأبعاد الدينية والأخلاقية.

أي أن استدعاء الوعاء الأخلاقي والثقافي لا يتوافق مع معايير الوضعية الواقعية، وهذه مفارقة تقدم لنا ابن خلدون العبقري في مخيلتهم لا في مخيلته، ومن خلالهم لا من خلاله [7]، لأنهم قاموا بقطع الخيوط التي تصل بين العبقرية الخلدونية وبين بيئته الحقيقية ومصادر وحيه الواقعي، التي كانت من دون شك أساسا في هذه العبقرية.

بعيداعن هذه الصيحات المقاربية التي يطل بها كثير من الباحثين، ينتخب عبد المجيد مزيان منهاجية وسيطة في النظر إلى النص الخلدوني لا تقوم على تمييع النص وتغييبه، ولا تقف عند النص كذلك موقفا الجامد الذي لا يتصور سوى الجمود والانغلاق، دون أي مفازة نحو التأثير والتأثر، هاتان نظرتان يبتعد عنهما التفكير الحقيقي في تقريب النص الخلدوني، فلا بد أولا من قراءة النص الخلدوني في معطياته الزمانية والمكانية، فهي الكفيلة وحدها بالوقوف على أبجديات الواقع المعاشي والحياة الاجتماعية لفترة معينة. ولا بد ثانيا أن نقرأه في انفتاحه، ومكوناته الإبداعية التي تمثل شرارة عميقة في الوقوف على الصيغ المنهاجية التي تعطي للنص نبضا توسعيا، وذلك في استدعاء المعطيات الواقعية